

المحاضرة الخامسة

علم الاجتماع ودراسة الثقافة

يذكر (تيماشيف) أن اختبار النظريات الاجتماعية في الماضي والحاضر، يثبت أنها دارت حول عدد قليل من المسائل أهمها:

- أ- ما الثقافة وما المجتمع؟
- ب- ما الوحدات الأساسية التي يمكن أن نحلل على أساسها كل من الثقافة والمجتمع؟
- ج- ما العلاقة بين الثقافة والمجتمع والشخصية؟
- د- ما العوامل التي تحدد حالة الثقافة وحالة المجتمع أو التغير في كل منهما.

- أهمية دراسة الثقافة:

ويتضح مما ذهب إليه تيماشيف أهمية دراسة كل من الثقافة والمجتمع والشخصية بالنسبة لعالم الاجتماع. فقد أصبح اليوم واضحا مدى التكامل بين هذه العوامل الثلاثة السابقة. ومن ثم فإن الباحث الذي يحاول دراسة أحد هذه العوامل بمعزل عن غيرها من العوامل الأخرى، فإنه لن يحقق هدفه من الدراسة.

ويتضح أهمية دراسة موضوع الثقافة بالنسبة لعالم الاجتماع، إذا علمنا أننا لا يمكن أن نفهم اختلاف سلوك الجماعات التي تنتمي إلى مجتمعات مختلفة، دون دراسة ثقافة هذه المجتمعات. فالثقافة لها تأثير كبير في توجيه وضبط سلوك الأفراد داخل المجتمع بالإضافة إلى أنها تساعدهم على التكيف مع البيئة أو تغير هذه البيئة بحيث تؤدي إلى إشباع احتياجاتهم.

ومع هذه الأهمية التي يوليها علماء الاجتماع لدراسة موضوع الثقافة، إلا أنه يجب مراعاة أن عالم الاجتماع لا يدرس الثقافة لذاتها، إذ أنها تشكل الموضوع الأساسي للدراسة في الأنثروبولوجيا الثقافية. ولكن علم الاجتماع يهتم غالبا بدراسة هذا الموضوع نظرا لما تلقيه الثقافة من ضوء على العلاقات الاجتماعية التي تمثل الموضوع الأساسي في علم الاجتماع.

مفهوم الثقافة:

يستخدم الناس مفهوم ثقافة في حياتهم اليومية للإشارة إلى المعرفة أو قراءة الصحف والمجلات، أو ممارسة بعض الفنون كالموسيقى، وغير ذلك. ومن ثم فإن هذا المفهوم الشائع لدى عامة الناس يقسم المجتمع إلى صفة مثقفة وجمهور أقل ثقافة. ويستخدم علماء الاجتماع مفهوم الثقافة بطريقة مختلفة تماماً، فكل أعضاء المجتمع الذين يتحدثون بلغته قد اكتسبوا الثقافة. فإكتساب الثقافة – من وجهة نظر علم الاجتماع – يتطلب مجرد مشاركة الأفراد في حياة المجتمع، وليس بالضرورة المشاركة في حياة الصفة المثقفة.

وقد وضع علماء الاجتماع والأنثروبولوجيا عدة تعريفات لمفهوم الثقافة.

ومن هذه التعاريف: " جميع هذه التعاريف وأسماء العلماء غير مطالبين بها في الاختبار " فقط تعريف تيلور

(أ) يرى (مافيس بيسانز) و (جون بيسانز) أن مفهوم الثقافة يختلف عن مفهوم ثقافة ما. فالمفهوم الأول يشير إلى الجزء الذي نتعلمه من السلوك الإنساني. أما المفهوم الثاني فيشير إلى طرق الحياة المميزة لهذا المجتمع. أي أن مفهوم الثقافة يشير إلى مجمل التراث الاجتماعي للبشرية، بينما يشير مفهوم ثقافة ما إلى التراث الاجتماعي لمجتمع معين.

(ب) قد يقتصر مفهوم الثقافة على الأفكار وأنماط السلوك دون الأشياء المادية مثل الأدوات والآلات. وقد يتبين ذلك من تعريف (فيليبس) للثقافة على أنها نسق من المعايير والقيم. وكذلك تعريف (هوبل) للثقافة بأنها ذلك الكل المتكامل من أنماط السلوك المتعلمة التي تميز أفراد المجتمع والتي لا تنتج عن العوامل الوراثية البيولوجية.

(ج) وفي أوائل القرن العشرين اتسع مفهوم الثقافة، بحيث أصبح يدل على كل الجوانب المادية وغير المادية في الحياة البشرية. ويتضح ذلك من التعريف الكلاسيكي البسيط الذي وضعه (تيلور) في مطلع كتابه عن الثقافة البدائية حيث يقول (إن الثقافة أو الحضارة هي ذلك الكل المركب الذي يشمل المعرفة والعقائد والفن والأخلاق والقانون والعرف وكل القدرات والعادات الأخرى التي يكتسبها الإنسان من حيث هو عضو في المجتمع. **مهم**

وقد يستخدم بعض علماء الاجتماع هذا المفهوم الواسع الذي ذهب إليه (تيلور) للإشارة إلى خصائص السكان. وفي هذا الصدد ، يذكر (رونالد فيديريكو) أن مفهوم الثقافة قد

يستخدم للإشارة إلى بعض الخصائص السكانية مثل: القيم، والمعتقدات، والسلوك، والأدوات، التي يحافظ عليها المجتمع، وتنتقل من جيل إلى جيل. ومن ثم فإن مفهوم الثقافة يتضمن كل جوانب الحياة الإنسانية من مادية وغير مادية التي يتعلمها ويشارك فيها أعضاء المجتمع.

(د) وبالإضافة إلى الاتجاهات السابقة في تفسير مفهوم الثقافة، فإننا نجد أن هناك اتجاه يرى أن الثقافة تجريد معنوي للسلوك. بمعنى أن الثقافة مجموعة من الأفكار يجردها العالم من ملاحظته للواقع المحسوس الذي يشتمل على أشكال السلوك المكتسب الخاص بمجتمع أو بجماعة معينة. ويوضح (ردفيلد) هذا الاتجاه بقوله أن الثقافة تبدو في طريقة العمل والصناعة ولكنها لا تتكون من العمل والصناعة.

(هـ) وأخيرا نجد أن بعض التعريفات التي ظهرت لمفهوم الثقافة، تهتم بالجانب الرمزي وبتعلم الرموز. ويؤكد ذلك ما ذهب إليه (تيرنر) من حيث أن الثقافة يمكن النظر إليها على أنها نسق من الرموز التي لها دلالة أو معنى ، التي يكونها ويحافظ عليها أفراد المجتمع من أجل تنظيم شئون حياتهم. وكذلك تعريف (هوايت) للثقافة على أنها الأشياء والأفعال ذات المعاني والتي تدرس في إطار غير شخصي.

ويتضح مما سبق، أن الاتجاهات المختلفة في تعريف الثقافة قد تأخذ اتجاها واقعي يرى أن الثقافة هي كل ما يتكون من أشكال السلوك المكتسب الخاص بمجتمع إنساني معين أو بجماعة معينة من البشر. وقد تأخذ الثقافة اتجاها تجريديا يرى الثقافة مجموعة أفكار يجردها العالم من ملاحظته للواقع المحسوس الذي يشتمل على أشكال السلوك المكتسب الخاص بمجتمع أو بجماعة معينة. وقد يظهر اتجاه ثالث يهتم بالجانب الرمزي. وهذا الاتجاه يعارض الاتجاه التجريدي ويأخذ بالاتجاه الواقعي على النحو الذي ذهب إليه (هوايت).

كما يتضح من التعاريف السالفة الذكر أن بعضها يهتم بتوضيح مكونات الثقافة من جوانب مادية أو غير مادية، ويأخذ بعضها اتجاها بنائيا يهتم بالصيغ العامة وأنماط الفعل والسلوك. بالإضافة إلى أن هناك بعض التعاريف التي تهتم بالجانب الرمزي.

وعلى الرغم من هذه الاختلافات التي تبدو بين العلماء حول تعريفهم للثقافة. إلا أنه مما لاشك فيه أن الثقافة ظاهرة عامة توجد في جميع المجتمعات الإنسانية وتؤثر في عملية التفاعل الاجتماعي والعلاقات الاجتماعية التي تحدث بين الأفراد داخل هذه المجتمعات. مما يوضح أهمية الثقافة بالنسبة لعالم الاجتماع.

وعند دراستنا لثقافة المجتمعات المختلفة، يجب أن نتجنب الميل نحو الحكم على هذه الثقافات أو تقييمها بمصطلحات تتفق مع قيمنا ومعاييرنا ولا تتفق مع هذه الثقافات. مما قد يؤدي إلى رؤيتنا لهذه الثقافات على أن لها مكانة أدنى من ثقافتنا. بل يجب على عالم الاجتماع أن يكون موضوعيا وأن يتخذ وضعا يتسم بالنسبية الثقافية، وأن يحاول فهم الثقافات الأخرى في ضوء مصطلحاتها الخاصة.

وفي هذا الصدد يذكر (مالينوفسكي) أنه عند دراسة القيم والمعايير الأساسية للثقافة وتحديد أثرها على السلوك الاجتماعي، فإن كلا من علماء الاجتماع والأنثروبولوجيا يقومون بدراسة ثقافة المجتمعات المختلفة باستخدام الملاحظة والمشاركة في حياة سكان هذه المجتمعات، مع تجنب الوقوع في ما يطلق عليه (التعصب السلالي) وهي الميل نحو تقييم الثقافات الأخرى بمصطلحاتنا التي قد لا تتفق مع هذه الثقافات.

وتتطلب الموضوعية العلمية درجة كبيرة من النسبية الثقافية التي تتجنب تقييم الثقافات وفقا لمصطلحاتنا الخاصة. ولاشك أن عالم الاجتماع يهتم بدراسة القيم والمعايير السائدة في المجتمعات المختلفة، كما يهتم بالتقييم الموضوعي لهذه القيم والمعايير، نظرا لما تلقاه من ضوء على العلاقات الاجتماعية ويمكن من فهم سلوك الجماعات التي تنتمي إلى المجتمعات المختلفة